تزكية النفوس عند أهل السنة والجماعة

أ.د. عبدالله بن عمر الدميجي

١٤٤٦/٦/٢هـ

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأكرمه بهذا الدين القويم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[لقمان:٢٠] وقال تعالى: ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار**﴾[إبراهيم:٣٤].

ولذا كان الشكر سبيل عباد الله الصالحين، ودأب أولياء الله المتقين من أتباع الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

ومن هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة أن الله تعالى -وله الحكمة البالغة- لما ركّب الإنسان من عنصري الروح والجسد كما في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ*ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾[السجدة:٧-٩]. شرع سبحانه لكل عنصر منها ما يصلحه فجعل شرائع لأعمال القلوب وأخرى للجوارح، وقدر بينهما من التلازم والترابط ما تقتضيه الحكمة الإلهية في صلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

والحديث عن تزكية النفس جدير بالاهتمام، وشرائع إصلاحها جديرة بالعناية، وبالحرص على معرفتها ووسائلها والاجتهاد في تحقيقها وذلك لعدّة أسباب منها:

أولاً: إنها إحدى المهمات والغايات التي بعث الله من أجلها الرسل عليهم السلام، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى عنه: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو**

عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُون فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُون﴾[البقرة: ١٥١-١٥٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين﴾[آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين﴾[الجمعة:٢].

وهي دعوة أبوينا إبراهيم وإسماعيل -عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم- لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيم﴾[البقرة:١٢٧-١٢٩].

وهي مهمة الأنبياء وليست خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ بل هي مهمة الأنبياء جميعا، ولذلك قال الله عز وجل لموسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[النازعات:١٨-١٩].

ثانياً: ومن أهميتها أن الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة معلق بالتزكية.

وقد أكد الله تعالى ذلك بما لا مزيد عليه، فقد أقسم سبحانه وتعالى أحد عشر قسماً -وهو أطول قسم في القرآن- على فلاح من زكّى نفسه وعلى خيبة من لم يزكها فقال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا*وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[الشمس:١-١٠]. أي: دنّسها بالذنوب والمعاصي والآثام.

وزكّاها: أي زكاها الله تعالى لأن تزكية النفس منّة ونعمة من الله عظيمة كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلا ﴾[النساء:٤٩]

ويحتمل أن يكون معناها: أي زكى الإنسان نفسه.

يعني: سعى واجتهد في تزكيتها كما في الآية الأخرى﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[الأعلى:١٤-١٥]وكما قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ﴾[فاطر:١٨].

وكلام المفسرين يدور حول هذين الاحتمالين، وسواء نسبت التزكية إلى النفس أو إلى الله تعالى فهي من الله تعالى وبفضله ومنّته خلقاً وإيجاداً كما قال عز وجل: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا)[النور:٢١]. وهي من الإنسان نفسه سبباً واجتهاداً.

فإضافتها إلى الإنسان من باب إضافة الشيء إلى سببه، فالعبد هو السبب في تزكية نفسه أو تدنيسها.

ثالثا: وكان طلب تزكيتها من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم كما روى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)) [1].

[1] صحيح مسلم – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٧٠٨١ (٨ / ٨١).

رابعا: ومن أهميتها أن الله تعالى جعل تزكية النفوس سببا للدرجات العلى في الجنة. قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى**﴾[طه:٧٥-٧٦].

خامساً: ويقابل ذلك أن الله تعالى جعل رفع التزكية عن النفس والحرمان منها عقوبة عاجلة يعاقب الله تعالى بها مرتكبي بعض الكبائر، ومن ذلك:

١- كتمان العلم وإهمال الاعتناء به، ومنع الحقوق وعدم الوفاء بالعهد، والكذب والخيانة قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم**﴾[البقرة:١٧٤] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم**﴾[آل عمران:٧٧] وقال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة ((ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل ثم قرأ هذه الآية{إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}.[٢]

٢- ومنها ما ورد في حديث أبي ذر:"ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" قال قلت: من هم يا رسول الله؟ قد

---

[٢] صحيح البخاري (واللفظ له) . ٢٣٥٨ (٣ / ١٤٥) صحيح مسلم . باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.- ٣١٠ (١ / ٧٢).

خابوا وخسروا فأعادها ثلاثا. قلت: من هم يا رسول الله؟ خابوا وخسروا فقال: ((المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب))[٣].

٣- ومنها ما ورد في حديث سلمان رضي الله عنه: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط[٤] زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه))[٥].

سادساً: ومما يدل على أهمية هذا الموضوع أن أكثر مشكلات المسلمين اليوم سواء كان على مستوى الجماعات أو الأفراد، بل حتى بين طلبة العلم ومن أكبر أسباب الانتكاسات والنكوص على الأعقاب والسقوط في الفتن هو بسبب عدم اهتمامهم بزكاة أنفسهم، وسلامة صدورهم وصفاء قلوبهم، وعدم عنايتهم بعلاج الأمراض القلبية التي تسري إلى القلب وتفتح أبوابه للشيطان وصاحبه لا يشعر.

ولا حلّ لهذه المشكلات إلا بالاستعانة بالله تعالى ثم الرجوع إلى القلب - بيت الداء - لتطهيره وتزكيته وإماطة ما فيه من أذى دفِين، وحقد وحسد وسوء ظن وضغينة وبغضاء، وغير ذلك من أمراض القلوب المعروفة.

سابعا: ومما يزيد من أهمية الحديث عن هذا الموضوع ولفت الأنظار إليه، هو كثرة المخالفين فيه، الذين يدعُون إلى تزكية النفس بغير الطرق المشروعة النافعة.

ومن ذلك ما نلمسه من انتشار ودعاية ودعم للطرق الصوفية المختلفة وخرافاتها، وإبراز أعلامها وإظهارهم بأنهم الأنموذج الأمثل للإسلام الصحيح الذي يهذب النفس ويعتني بالروح وغذائها، وتخدير الشعوب بدعاياتهم وأعيادهم وطقوسهم التي تدغدغ العواطف وتثير الغرائز من رقص ودفٍّ باسم تزكية النفس وتغذية الروح.

---

(٣) صحيح مسلم . باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ١٧١ (١ / ١٠٢).

(٤) أشيمط: مصغّر أشمط وهو من ابيضّ بعض شعر رأسه كبرا واختلط بأسوده.

(٥) رواه الطبري في الكبير(٦١١١) والصغير(٢/٢١) بإسناد صحيح ٨٢١ (٤ / ٧٨)، قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (٣٠٧٢) في صحيح الجامع.

إضافة إلى اعتمادهم في أبواب الاعتقاد على الكلام والفلسفة المقسِّية للقلب، والمفسدة له. فيلجؤون إلى البحث عمّا يسدّ الجوعة الروحيّة والعاطفيّة، فيقعون فريسة لأرباب الخرافة والتصوف والشعوذة.

ثامناً: ويزيد الأمر أهمية في عصرنا الحاضر؛ طغيان المادّية على حياة المسلمين، وغفلتهم عن الله تعالى وذكره والدار الآخرة، وانحسار الاهتمام بالجوانب الإيمانية الشرعيّة، وعدم الاهتمام بتزكية النفوس في مقابل انتشار المؤثرات التربوية المعاصرة، والفلسفات الغربية والشرقية التي أصبح يُروَّج لها في بلاد المسلمين باسم دورات الطاقة وتطوير الذات والروحية الحديثة واليوجا البوذية الوثنية وغيرها، إضافة إلى الاختلال في الموازين، والاضطراب في المفاهيم عند كثير من المسلمين، والتلاعب بالمصطلحات، والترويج للباطل في قوالب ومسمّيات شرعية، محبّبة للنفوس، ساعد على ذلك الثورة في وسائل الاتصالات الحديثة والغزو الرهيب من أعداء الإسلام لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في عقيدتها وسلوكها وأخلاقها، والسعي الحثيث إلى تدمير ما تبقّى عندها من الخصال الحميدة والأخلاق الرفيعة عن طريق الأقمار الصناعية والفضائيات والشبكات العنكبوتية، وغيرها. مما يستدعي النفير العام للأمة لمحاربة هذه الجيوش الغازية بشتى الوسائل والسبل، ومن ذلك تحصين الحصون الداخلية لأبناء المسلمين بتزكية نفوسهم وملئها بكل ما يصلحها ويقوّم شأنها حتى لا يجد العدو عليها سبيلا.

معنى التزكية:

يقول ابن فارس: " الزاي والكاف والحرف المعتل(زكا) أصل يدل على نماء وزيادة".[٦]

فالتزكية لغة: بمعنى الطهارة والنماء والزيادة في الصلاح، يقال زكى الشيء إذا نما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[التوبة:١٠٣] فجمع بين الزكاة والطهارة لتلازمهما، ولذا تفسّر الزكاة تارة بالنماء والزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين: إزالة الشّر وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان.[٧]

قال شيخ الإسلام: "والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ودفع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره "[٨]. ونجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن.

إذًا فلا بد لتحقيق تزكية النفس من تحصيل الوسائل المؤدية إليها مع محاربة وطرد وإبعاد الوسائل المدنسة للنفس. فلا يمكن أن ينمو النبات صحيحا ويؤتي أكله كاملا إلا بعد تنقية التربة من الحشائش الضارة وسائر عوائق النمو السليم.

وعليه فإن تزكية النفس هي تطهيرها من جميع الأدران التي تعْلق بها مثل:

١) أدران الشرك،كبيره وصغيره، جليّه وخفيّه. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيق﴾[الحج:٣١].

---

(٦) معجم مقاييس اللغة(١٣/٣).

(٧) ينظر: مجموع الفتاوى(١٩٨/١٦).

(٨) مجموع الفتاوى (٩٦/١٠).

٢) أدران الكبائر والموبقات، كبيرها وصغيرها[٩] وليس في الذنوب صغير باعتبار عظمة من عُصي. ولذلك حذر منها المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: ((إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه)).[١٠]

٣) أدران الأخلاق الفاسدة والمسالك المشينة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقا)).[١١]

ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، مرفوعاً: ((الخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل)).[١٢]

ثم بعد تطهيرها، غرس الإيمان الصادق، والتوحيد الخالص، وعمارة القلوب بحب الله ورسوله وتعظيمه وإجلاله، وإجهاد النفوس في طاعة الله تعالى وتربيتها على أخلاق الإسلام الفاضلة ومبادئه السامية، على منهج أهل السنة والجماعة.

ولذا؛ يمكن القول بأن تزكية النفس في الاصطلاح هي: تطهير النفس وتهذيبها من الآفات النفسية والخلقية، وتحليتها بالفضائل الإيمانية والشرعيّة.

---

(٩) لم يرد النص بتسميتها صغائر، ولكن ذلك مأخوذ من مفهوم المخالفة في قوله تعالى: {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[النساء:٣١]. وحديث:((الجمعة إلى الجمعة...كفارة لما قبلها إذا اجتنبت الكبائر)). ولعلّ من حِكم عدم التصريح بصغرها في الكتاب والسنّة دفعا لتهاون النفوس بها، فلا تذكر إلا على سبيل المفهوم والإيماء..والله أعلم.

(١٠) رواه أحمد٢٢٨٠٨(٣٧/ ٤٦٧) والطبراني٥٨٧٢(٦/١٦٦) بإسناد صحيح.

(١١) مسند أحمد ١٧٧٣٢ (٢٩/ ٢٦٧)، سنن الترمذي ٢٠١٨(٤/ ٣٧٠) وصححه الألباني.

(١٢) المعجم الأوسط ٨٥٠(١/ ٢٥٩).

لماذا منهج أهل السنة والجماعة ؟:

ولا تزكو النفوس وتسلم القلوب إلا إذا كانت تزكيتها على منهج أهل السنة والجماعة وذلك للاعتبارات التالية:

الأول: أن تزكية النفوس لا تكون صحيحة ومثمرة إلا عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكيتها إلا عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الضلال فيه يحول بينه وبين الحقّ، ويريد أن يداويه فيمرضه، ويريد أن يصلحه فيعطبه.

ونؤكد على وجوب التزام منهج أهل السنة والجماعة في تزكية النفس القائم على الوحي، كما هو الواجب في العقيدة والشريعة والعبادة.

يقول ابن القيم رحمه الله: " تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسول فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم "[١٣].

ويقول أيضاً: "وأما الأبدان الزاكية فهي التي زكت بطاعة الله ونبتت على أكل الحلال فمتى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة وطهرت الأنفس من علائق الدنيا زكت أرض القلب فقبلت بذور العلوم والمعارف، فإن سقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية وهي التي لا تخرج عن علم ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة أنبتت من كل زوج كريم من علم وحكمة وفائدة "[١٤]. سئل الإمام أحمد: يا أبا عبد الله؛ بم تلين القلوب؟ قال: بأكل الحلال.[١٥]

الثاني: لأن هناك مناهج مختلفة قديمة وحديثة،كلها يدّعي أصحابها بأنها الطريق إلى تزكية النفوس وتطهيرها وتنقيتها، ومن هذه المناهج:

---

[١٣] مدارج السالكين (٢/٣١٥).

[١٤] مدارج السالكين (٢/٤٧٤).

[١٥] مدارج السالكين (٢/٤٧٤).

١- المذاهب الفلسفية المعاصرة، وهذه قائمة على غير هدى من الله، وتختلف عن منهج الإسلام في الغايات والوسائل، فبعضها يجعل اللذة هي الغاية التي تسمو بها النفوس، وبعضها يجعل تحقيق المنفعة — النسبية — هي هدفه ومبتغاه، وبعضها يجعل الحرية هي الهدف المنشود، وباختلاف الغاية تختلف وسائل الوصول إليها بالتّبع، وتختلف النتائج والثمرات الناتجة عن ذلك.

٢- ثم هناك المناهج الصوفية المنتسبة إلى الإسلام وتزعم أن هدفها هو تزكية النفس وتنقيتها، وقد رسمت لها خططا ومناهج خاصة مخالفة للكتاب والسنة وهدي سلف الأمة للوصول إلى ذلك الهدف كالرياضات المختلفة أو التجويع والهيام في الفضاء والصحاري أو الرهبنة والانقطاع في الصوامع والدور أو السماع المحرم والرقص وغير ذلك من الوسائل المحرمة، وهي مناهج دخيلة تسرّبت إلى المسلمين من فلسفات وديانات وثقافات أجنبيّة قديمة، كالديانات الهندية وغيرها. وزرعت في نفوس أتباعها التعلّق بالأشخاص من الأحياء والأموات وأصحاب القبور، وصرفتهم عن التعلّق بالله عز وجل وحده، ففسدت نياتهم وأعمالهم وأصبحوا ضحايا لكل دجّال ومشعوذ وخرافي، فعبدوا العباد وانصرفوا عن عبادة ربّ العباد.

وساعد على ذلك تربيتهم على علم الكلام والفلسفة الجافة المقسِّية والمفسدة للقلوب، كما تقدم.

الثالث: جرأة بعض الناس على اتهام أهل السنة والجماعة والسلف الصالح بتقصيرهم في جانب السلوك وتزكية النفوس، والاقتصار على الجوانب المعرفية الجامدة والعقيمة التي لا تهذب النفوس ولا تقوّم اعوجاجها، ويستدلون على ذلك -بهتانا وزورا- بأنك لو نظرت إلى كتب الفقه مثلا لا تجد فيها بابا في تزكية النفس ولا تهذيب السلوك، ولو رجعت إلى كتب العقائد — ويعنون بها كتب العقيدة المبنية على علم الكلام — لم تجد فيها ذكرا لهذه الجوانب، فلا بدّ إذاً من إحياء رسالة التصوف لسدّ هذه الثغرة في علوم المسلمين.

ولاشك أن هذا جور وبهتان فمصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهما مليئان بالنصوص الكثيرة المبينة لهذا الجانب المهم في الوصول بالإنسان إلى الحياة الطيبة السعيدة في الدنيا والآخرة.

ويكفي الإنسان أن يتأمل في الآيات القرآنية الكثيرة الدّالة على تزكية النفوس وإصلاح القلوب ومعالجتها من أمراضها وأدرانها، وقد وصف الله تعالى القلب في القرآن الكريم بأكثر من ستّة وثلاثين وصفاً منها اثنا عشر وصفاً للقلوب السليمة، وأربعة وعشرون وصفا للقلوب السقيمة والميتة. (١٦)

كما عليه أن ينظر إلى المصنفات في السنة وكتب أهل الحديث، وسيجد فيها أبواب الأدب، والرقاق، والزهد، بالإضافة إلى مصنفات أهل السنة المستقلة في الزهد التي صنفها كبار أئمة السلف، ومن اطلع على كتب العقيدة الصحيحة ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيّم ومحمد بن عبد الوهاب، علم ما تحويه من الكنوز في هذا الجانب. ونشير هنا إلى جملة من المؤلفات عند علماء السنة والجماعة التي تناولت هذا الموضوع، وفصّلت الحديث فيه، ومنها:

١- نماذج من الكتب والمؤلفات المفردة في موضوع الزهد والرقائق وتزكية النفوس.

أ- الزهد والرقائق، لابن المبارك.

ب- الزهد، والورع. كلاهما لأحمد.

ت- الورع، والتوكل على الله، واليقين..وغيرها. لابن أبي الدنيا.

ث- الزهد لأبي حاتم.

ج- الزهد لابن أبي عاصم.

ح- الزهد والرقائق للخطيب البغدادي

خ- الأخلاق والسير ومداواة النفوس لابن حزم.

د- بستان الواعظين، لابن الجوزي.

ذ- بستان العارفين، للنووي.

ر- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة.

---

(١٦) ينظر: التوكل على الله وعلاقته بالأسباب-للمؤلف(ص٣٥-٤٣).

ز- المحجة في سير الدلجة لابن رجب.

٢- بعض كتب الزهد والرقائق المدرجة ضمن مصنفات بعض العلماء كالجوامع والصحاح والسنن والمسانيد، وغيرها.

أ- باب اليقين وباب زهد الصحابة في كتاب الجامع لمعمر ابن راشد.

ب- كتاب الزهد في مصنف ابن أبي شيبة.

ت- كتاب الرقاق في سنن الدارمي.

ث- كتاب الرقاق في صحيح البخاري.

ج- كتاب الرقاق وكتاب التوبة وكتاب الزهد في صحيح مسلم.

ح- كتاب الجنائز في سنن أبي داود

خ- أبواب الزهد والرقاق والورع في سنن الترمذي.

د- كتاب الزهد في سنن ابن ماجه.

ذ- كتاب التوبة والإنابة، وكتاب الرقاق في مستدرك الحاكم.

إلى غير ذلك من كلام أهل العلم من سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان المبثوث في تراجمهم ونقول المؤرخين عنهم والمنصوص عنهم في مؤلفاتهم في مسائل تزكية النفوس وتطهير الأرواح المبني على نصوص الكتاب والسنة مما لا يجحده إلا مكابر، وقد تميز بعضهم بذلك كما هو المنقول بعد الصحابة والتابعين عن أيوب السختياني وعبد الله بن عون ويونس بن عبيد، ثم الحسن البصري والفضيل وأبي نعيم وغيرهم ممن لا يحصون، رحمهم الله جميعا.

٣- ومن العلماء من ضمّن أبواب التزكية ما دوّنه في بيان معتقد أهل السنة والجماعة، ومن الأمثلة على ذلك:

أ- ما ذكره الإمام أبوبكر الإسماعيلي(ت٣٧١) في اعتقاد أهل السنة والجماعة، حيث قال: "ويرون مجانبة البدعة والآثام ، والفخر، والتكبر، والعجب، والخيانة، والدغل، والاغتيال والسعاية، ويرون كف الأذى وترك الغيبة إلا لمن أظهر بدعة وهو يدعو إليها، فالقول فيه ليس بغيبة عندهم، ويرون تعلم العلم وطلبه من مظانه، والجد في تعلم القرآن

وعلومه وتفسيره، وسماع سنن الرسول صلى الله عليه وسلم وجمعها والتفقه فيها، وطلب آثار أصحابه، والكف عن الوقيعة فيهم، وتأول القبيح عليهم، ويكلونهم فيما جرى بينهم على التأويل إلى الله عزّ وجل، مع لزوم الجماعة، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس، والسعي في عمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".[١٧]

ب- وما ذكره أبو عثمان الصابوني(٤٤٩هـ) رحمه الله تعالى عند ذكره لعقيدة السلف: "ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام وإفشاء السلام وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع. ويتحابون في الدين ويتباغضون فيه، ويتقون الجدال في الله، والخصومات فيه، ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات".[١٨]

ج- وصرح قوام السنة(٥٣٥هـ) رحمه الله بأن: "من مَذْهَب أهل السّنة التورع فِي المآكل والمشارب والمناكح والتحرز من الْفَوَاحِش والقبائح، والتحريض عَلَى التحاب فِي الله عَزَّ وَجَلَّ، واتقاء الْجِدَال والمنازعة فِي أصُول الدّين، ومجانبة أهل الْأَهْوَاء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، وَالْقِيَام بوفاء الْعَهْد وَالْأَمَانَة، وَالْخُرُوج من الْمَظَالِم والتبعات وغض الطّرف عَن الرِّيبَة والحرمات، وَمنع النَّفس عَن الشَّهَوَات، وَترك شَهَادَة الزُّور وَقذف الْمُحْصنَات، وإمساك اللِّسَان عَن الْغَيْبَة والبهتان، والفضول من الْكَلَام وكظم الغيظ، والصفح عَن زلل الإخوان، والمسابقة إِلَى فعل الخيرات، والإمساك عَن الشُّبُهَات، وصلَة الْأَرْحَام، ومواساة الضُّعَفَاء والنصيحة فِي الله، والشفقة عَلَى خلق الله، والتهجد لقِيَام اللَّيْل لَا سِيمَا لحملة الْقُرْآن، والبدار إِلَى أَدَاء الصَّلَوَات".[١٩]

د- وذكر شيخ الإسلام جملة من مكملات العقيدة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال في العقيدة الواسطية، فيقول: "ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله: "

---

[١٧] اعتقاد أهل الحديث للإسماعيلي (ص: ٥٩-٦٠).

[١٨] عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص: ٣٤).

[١٩] الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٧٢).

{ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا } . ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك؛ ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك؛ وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق؛ ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفسافها".(٢٠)

٤- وغالب المدوّنات الموسوعية ومؤلفات العلماء الكبار مليئة بالحديث عن القلب وتزكيته والبعد عما يدنّسه كمؤلفات الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد، والإمام النووي وشروحه والحافظ ابن عبد البر وغيرهما.

- وغالب كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومنها: العبودية، والاستقامة، والتوسل والوسيلة، وسائر كتبه رحمه الله تعالى، ومنها المجلد العاشر من مجموع الفتاوى فهو خاص بالسلوك.

- وغالب كتب ابن القيم رحمه الله تعالى، ومنها على وجه الخصوص: مدارج السالكين، وإغاثة اللهفان، والداء والدواء، وطريق الهجرتين، وعدة الصابرين، وغيرها.

- وغالب كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وخاصة كتاب التوحيد.

٥- ومن الكتب الحديثة:

أ- أعمال القلوب، لخالد السبت.

ب- منهج الإسلام في تزكية النفس. د. أنس كرزون[رسالة علمية].

ج- منهج الأنبياء في تزكية النفس. للشيخ سليم الهلالي.

وغيرهم من العلماء المتقدمين والمتأخرين الذين لا يحصون رحمهم الله أجمعين.

فكيف يقال أنّ أهل السنة أغفلوا الحديث عن تزكية النفوس حتى ظهرت الصوفية.

والصحيح أنهم أغفلوا ونهوا عن الطرق المبتدعة من طرق الصوفية وغيرها. أما التزكية بالوحي وعلى منهج أهل السنة فلا يجحد ذلك إلا مكابر معاند.

---

(٢٠) متن العقيدة الواسطية (ص: ١٥).

وسائل التزكية وأسبابها:

أما وسائل التزكية فكثيرة ومعلومة، والذي يشكى منه هو ضعف الجدية في طلبها؛ لتكون واقعا محسوسا ومفيدا في حياتنا، فالتطبيق العملي هو ما نحتاج إليه، وليس مجرد معرفة هذه الوسائل؛ ولذا يحسن الإشارة إلى بعض هذه الوسائل طمعاً في السعي إلى تحقيقها في الواقع، ومنها:

أولها: العلم الشرعي المؤدّي إلى الإيمان الراسخ.

وقد جمع الله تعالى بينهما في قوله عز وجل: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون**﴾[الروم:٥٦] وذكر الإيمان بعد العلم تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره، وإلا فذكر العلم يتضمّن الإيمان، ولا يوصف العلم النافع الا بما يوجب الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير**﴾[المجادلة:١١] فالعلم الشرعي هو مادة حياة القلوب وزكاة النفوس، والإيمان هو ثمرته اليانعة، وجناه الداني؛ فالعلم يهدي إلى الإيمان ويقوّي دعائمه، ولا مصلحة في شجرة بلا ثمر، والإيمان يدعو إلى العلم ويحثّ عليه وبغير العلم يكون الإيمان ضعيفا، عرضة لكل عاصفة تجتثّه من جذوره الضعيفة.

والعلاقة بين العلم والإيمان والصلة بينهما صلة وثيقة لا يغني أحدهما عن الآخر، وهذه الصلة والترابط لا تكون إلا في الإسلام قال الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون**﴾[يونس:٥٨]. قال سعيد بن جبر رحمه الله تعالى: "فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلنا من أهله "[٢١]. ودلّ على ذلك الآية قبلها، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين**﴾[يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم**

---

[٢١] تفسير الطبري. (١٢ / ١٩٥).

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤]. وقد فُسّرت هذه الحيلولة بالحيلولة دون صلاح القلب وسببه.

وقد تقدم أن مهمة الرسول تلاوة ما أوحي إليه، وتزكية النفوس به وتعليمها وتربيتها.

وقد أمر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، وبدأ بكلمة التوحيد فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُم﴾[محمد:١٩].

ولذا عقد الإمام البخاري رحمه الله باباً سمّاه (بابٌ العلم قبل القول والعمل) لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ قال ابن المنيّر: " أراد أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به فهو متقدّم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل".(٢٢)

والعلم ثلاث درجات:

١- أعلاه: العلم بالله وبأسمائه وصفاته والإيمان به، وتوحيده في ربوبيته وإلاهيته، وهذا هو العلم المورث لخشية الله، وهو المقصود بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُور﴾[فاطر:٢٨]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كفى بخشية الله عِلْماً، وبالاغْتِرَارِ بِاللَّه جَهْلاً"(٢٣).

وهو العلم المشتمل على تحقيق الإيمان والتوحيد لله والإخلاص له سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون﴾[فُصِّلَت:٦-٧]، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: الزكاة ها هنا: هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله،

---

(٢٢) النكت على صحيح البخاري (٢/ ١٠٦).

(٢٣) التفسير البسيط(١٨/ ٤٢١).

والإيمان الذي يزكو به القلب فإنه يتضمن نفي إلاهية ما سوى الله من القلب، وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه، وتوحيده هو أصل كل زكاة ونماء.

٢- العلم بما يجب على الإنسان من أمور دينه ومعاملاته -وهو العلم بالشريعة وبالحلال والحرام - ويدخل في ذلك الأخلاق والسلوك والآداب الشرعية.

٣- العلم بما يتعلق بأمور الآخرة، وهو(علم الغاية) كالموت، والقبر، ويوم القيامة، وانتهاء بما ينتهي إليه العبد (فريق في الجنة وفريق في السعير) وهو ثلث العلم، قال ابن القيم في نونيّته:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني[٢٤]

وهذا العلم هو الذي يعمر القلب، ويزكي النفس ويطهرها، ويسمو بها، قال أحد العلماء: "إن العلم أول منازل السالك إلى الله تعالى وينبغي أن يصحبه إلى آخر الطريق". ويُسمّى-عند بعض أهل العلم - بعلم السلوك.

ولا يخفى على متأمِّل أن أجل مصدر لهذا العلم هو الوحي الإلهي القرآن الكريم والسنّة النبوية، قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[العنكبوت:٥١]، فمن حوى علومه حاز الخير العميم، ومن فرط في تعلمه ودراسته فلا شك أنه ممن يُخشى عليه من الانحراف العقدي والسلوكي، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[طه:١٢٤] وهذا سبيل واضح لتدنيس النفس، وعدم تزكيتها، ففي الحديث:((إن الذي ليس في جوفه من القرآن شيء كالبيت الخرب))[٢٥].

---

[٢٤] نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٢٦٦).

[٢٥] أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١ / ٧٤١) وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١ / ٢١٧).

وأهمية العلم لا تنكر، ومما روي عن معاذ موقوفا: "تعلموا العلم، فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد، وبه يوحد الله ويمجّد.."[٢٦].

وبتأمّل حال الذين لا يعلمون، وحال الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم:٧] تجدهم في حضيض البؤس النفسي وضيق الصدر، ما يجعل بعضهم ينتحر لأجل محاولة التخلص من ذلك الضيق، وذلك مصداقا للخبر ((إن الله يبغض كل جعظري جوّاظ[٢٧] سخاب بالأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة))[٢٨].

كما روي عن معاذ عند موته: "اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر"[٢٩] فلخّص رضي الله تعالى عنه أبرز ما تزكو به النفس في آخر حديثه من الصيام والقيام وطلب العلم.

والعلم نافع في تزكية النفس بشرط أن يبتغى به وجه الله تعالى، حتى لا يشمله الوعيد الوارد لمن طلب العلم للدنيا، ففي الحديث: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ

---

[٢٦] حلية الأولياء(١ / ٢٣٩).

[٢٧] السَّخب والصَّخَب: بمعنى الصياح. والجَعْظَري: الفظّ الغليظ المتكبر، وقيل: هو الذي ينتفخ بما ليس عنده وفيه قِصَر. والجوّاظ: الجموع المنوع. وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته.

[٢٨] صحيح ابن حبان ذكر الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها و الجهل بأمر الآخرة و مجانبة أسبابها ٧٢(١/ ٢٧٤)؛ سنن البيهقي الكبرى – باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار ٢٠٥٩٣ (١٠ / ١٩٤) وقال الألباني:(صحيح) انظر: حديث رقم: (١٨٧٨) في صحيح الجامع. وضعفه في ضعيف الترغيب(٣٧٨)؛ الضعيفة (٢٣٠٤)، ضعيف الموارد(١٩٧٥/٢٣٩).

[٢٩] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – (٢ / ٢٨١)

اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) [٣٠]. يعني ريحها.

فبالإخلاص: يبارك الله للعبد في العلم والعمل وإن قلّ، وبفقده يحبط ثوابهما وإن كثرا، وبه يتحول العمل العادي إلى عبادة يؤجر عليها.

الوسيلة الثانية: العمل بما علم.

فمن لم يعمل بعلمه لم يزكّ علمه قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص﴾[الصف:٢-٤]**. والمقت: غاية الكره. وقال تعالى: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤]**، وفي الحديث الصحيح: ((يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)) [٣١].

وكان صلى الله عليه وسلم يتعوذ من علم لا ينفع. [٣٢]

ومن تزكية العلم المهمة تعليمه. فبذل العلم للعالَم من أجل القربات وآكد المهمات والواجبات وعليه جزيل الهبات وعظيم الدرجات، وكتمانه والبخل به من أعظم الموبقات، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء:٣٧]**. وسيأتي الإشارة إليه.

---

[٣٠] سنن أبي داود ـ -باب فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى. ٣٦٦٦ (٣ / ٣٦١) سنن ابن ماجه ـ ٢٥٢ (١ / ١٦٩) مسند أحمد بن حنبل – ٨٤٣٨ (٢ / ٣٣٨) وقال الألباني: (صحيح لغيره) انظر: صحيح الترغيب والترهيب – (١ / ٢٥).

[٣١] صحيح البخاري ٣٢٦٧(٤/ ١٢١).

[٣٢] صحيح مسلم ـ – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. ٧٠٨١ (٨ / ٨١).

وبذل العلم ونشره والدعوة إليه هو جهاد الخاصة ومن أجلّ صدقاتهم وإحسانهم، وأعمال البر والعبادة التي يتقرب بها إلى الله.

والنصوص في فضل العلم وتعليمه أجل من أن تحصر وهي مشهورة ومعروفه.

والعمل ثقيل، لذا يحتاج إلى نفس قوية، وعزيمة صادقة، تتغلب على هواها ووساوس الشيطان، قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[المزّمل:٥]، فهو ثقيل في منزلته، وثقيل في العمل به. فهو يتضمن المأمورات الكثيرة، ومن أجلها:

١- الصلاة، فيبدأ بالفرائض قبل النوافل، فالفاضل قبل المفضول قال صلى الله عليه وسلم ((إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته.)) [٣٣]. وقال تعالى آمرا بإقامة هذه الصلوات المفروضات: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:٤٥]، وفيها التنبيه إلى الارتباط بين القرآن والصلاة، كما ورد التنبيه إلى الارتباط بين الصلاة والتوحيد في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الروم:٣١]، وعن أثر الصلاة في تزكية النفس وتنقية القلب ومحو الذنوب ما ورد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه يقول: ((أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا هل يبقى من درمنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)) [٣٤].

فكما أن الماء يطهر من الأقذار الحسية فكذلك الصلاة تطهر من أقذار الذنوب والفواحش.

---

[٣٣] صحيح البخاري. ٦٥٠٢ (٨ / ١٣١).

[٣٤] صحيح البخاري. ٥٢٨(١ / ١٤١).

ويجب على كل مسلم أن يحرص على أن تكون صلاته تامة، ويحرص على الخشوع التام.

قال عبادة: " يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعا"[٣٥].

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: " إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها"[٣٦].

يقول ابن القيم رحمه الله: " للعبد بين يدي الله موقفان؛ موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدّد عليه ذلك الموقف قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً*إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً}[الإنسان:٢٦-٢٧]"[٣٧].

ومما يدل على أن الذكر والوضوء والصلاة سبيلان للتزكية حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ)) [٣٨].

٢) الصدقة: قال تعالى: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[التوبة:١٠٣].**

---

[٣٥] المستدرك على الصحيحين كتاب العلم٣٣٨(١ / ١٧٩).

[٣٦] إحياء علوم الدين - (١ / ١٧٢).

[٣٧] الفوائد - (١ / ٢٠٠).

[٣٨] صحيح البخاري. ١١٤٢ (٢ / ٦٥) صحيح مسلم. ١٨٥٥ باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح.- (٢ / ١٨٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس)) [٣٩]، وفي موطأ مالك رحمه الله، قال عبد الله بن الأرقم: "إنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم"[٤٠]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين)) [٤١].

٣-الصوم، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه)) [٤٢] وما استعان أحد على تزكية نفسه وحفظ حدود الله وتقواه بعد الصلاة والزكاة بمثل الصوم ولذا قال صلى الله عليه وسلم: ((والصوم جنة))[٤٣] ولذا فهو يقي صاحبه من المعاصي في الدنيا. وإذا كان له جنّة من المعاصي كان له جنّة من النار في الآخرة.

٤-الحج، قال صلى الله عليه وسلم: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه))[٤٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)).[٤٥]

٥-وكذلك سائر الطاعات من الواجبات والنوافل كلها تعين على تزكية النفوس وتغذية الأرواح وتطهير القلوب وغفران الذنوب.

٦-والتزكية بالأعمال ليس خاصا بأعمال الجوارح، بل تدخل الأعمال القلبية دخولا أوليّاً، كحبّ رسول الله، والتوكل على الله وخشيته، وتعظيمه والإنابة إليه.

---

[٣٩] صحيح مسلم . باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة. ٢٥٣١ (٣ / ١١٩).

[٤٠] الموطأ - رواية يحيى الليثي - باب ما يكره من الصدقة ١٨٢٠ (٢ / ١٠٠١).

[٤١] سنن أبي داود . باب زكاة الفطر ١٦١١ (٢ / ٢٥) سنن ابن ماجة .كتاب الزكاة ١٨٢٧ (٣ / ٣٩). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (١ / ٢٦٣).

[٤٢] صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي ٣٨ (١ / ١٦) صحيح مسلم . باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح. ١٨١٧ (٢ / ١٧٧).

[٤٣] صحيح البخاري ٧٤٩٢(٩/ ١٤٣).

[٤٤] صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي ١٥٢١ (٢ / ١٦٤) صحيح مسلم . باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. ٣٣٥٧ (٤ / ١٠٧).

[٤٥] صحيح البخاري١٧٧٣(٣/ ٢)، صحيح مسلم ١٣٤٩(٢/ ٩٨٣).

والسلف مع كثرة أعمالهم كانوا يخافون ألا يتقبل منهم وهم لا يشعرون. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١]قالت عائشة: "هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات)) [٤٦].

وقال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل[٤٧].ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق".[٤٨]

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق؛ فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أسر إليه النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء أناس من المنافقين؛ فقال له عمر رضي الله عنه" أنشدك الله؛ هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من سمى من المنافقين؟ فقال حذيفة رضي الله عنه لا، ولا أزكي بعدك أحدا"[٤٩].أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة[٥٠]، وإلا فقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة.

٧- وأيضا مع فعل هذه المأمورات يجب عليه ترك المحرمات:

قال ابن تيمية: "النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل مزكيًا إلا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها"[٥١].

---

[٤٦] سنن الترمذي - ٣١٧٥ (٥ / ٣٢٧) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي - (٧ / ١٧٥).

[٤٧] رواه البخاري في التاريخ الكبير(١٣٧/٥).

[٤٨] صحيح البخاري(١ / ١٨).

[٤٩] طريق الهجرتين وباب السعادتين - (١ / ٤٣٣).

[٥٠] والتكذيب غير وارد هنا لأنه بشره بالجنة لكن لم ينقل أنه برّأه من كلّ صفات النفاق، فكان هذا السؤال من شدّة خشيته وخوفه من الله وازدرائه لنفسه، وبهذا تجتمع النصوص إن شاء الله.

[٥١] الزهد والورع والعبادة - (١ / ٦٢).

قال ابن القيم: إن زكاة القلب موقوفة على طهارته كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[النور:٢١]، ذكر ذلك عقب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية فدل على أن التزكي اجتناب ذلك "[٥٢]. فليس بين العبد وبين الهلكة إلا أن يخذله الله، نعوذ بالله من الخذلان، فما ثَمّ إلا رحمة الله أو الهلكة﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ [النحل:٥٣].

٨- بل قد بيّن الله تعالى أن التزكي هو في اجتناب الوسائل المحرمة التي قد تؤدي إلى الحرام، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون﴾[النور:٣٠].

وقال في النهي عن عضل النساء: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾[البقرة:٢٣٢].

وفي آداب الاستئذان، أمر بالرجوع إذا لم يؤذن للمستأذن بالدخول، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم﴾[النور:٢٦-٢٨].

---

[٥٢] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - (١ / ٤٩).

وقد سمى الله عز وجل هذه المعاصي والذنوب بما يقابل التزكية والطهارة[٥٣]، فقال تعالى عن أكبر الذنوب وهو الشرك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيم﴾[التوبة:٢٨].

وقال في حق الزناة: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم﴾[النور:٢٦]

وقال عن عمل قوم لوط: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِين﴾[الأنبياء:٧٤].

وروى مالك في الموطأ قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)) [٥٤].

وعلى الجملة فكل المعاصي كبيرها وصغيرها تسهم في تدنيس النفس، وكل أعمال الطاعة صغيرها وكبيرها تسهم في تزكية النفس وتطهيرها.

الوسيلة الثالثة: مجاهدة النفس ومحاسبتها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين﴾[العنكبوت:٦٩].

ومراتب جهاد النفس أربع:

١- أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا سعادة لها إلا به.

٢- أن يجاهدها على العمل به بعد علمه.

٣- أن يجاهدها على الدعوة إليه.

٤- أن يجاهدها على الصبر على الأذى فيه.

---

[٥٣] في مقدمة زاد المعاد، فصل نفيس عن النفوس الطيبة المزكاة.

[٥٤] الموطأ – باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنى ١٥٠٨ (٢ / ٨٢٥).

وقد اشتملت سورة العصر على هذه المراتب الأربع.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وهلاك القلب من إهمالها ومحاسبتها – يعني النفس – ومن موافقتها واتباع هواها، ولذلك ورد في الأثر: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني. وكان عمر يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، ويقول الحسن: "لا تلقى المؤمن إلا وهو يحاسب نفسه.

ويقول الحسن أيضا: إن العبد ما يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته.

ويقول ميمون بن مهران: إن التقي أشد محاسبة لنفسه من شريك شحيح حتى يعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه أمن حلال ذلك أم من حرام"[٥٥].

ومحاسبة النفس أنواع:

نوع قبل العمل ونوع معه ونوع بعده:

أما الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له إخلاص نيته ورجحانه على تركه والعلم بأنه حق وصواب مما يرضي الله عز وجل أو من مباحاته.

الثاني: محاسبة النفس في أثناء العمل؛ وذلك بالتزامها بالسنة والطريقة المشروعة، وحماية العمل من الرياء والسمعة ونحوها من المحبطات.

الثالث: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

١) محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

٢) أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

٣) أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لِمَ فعله؟ وهل أراد به وجه الله والدار الآخرة ليؤجر عليه، أو أراد به الدنيا فقط؟.

---

[٥٥] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان – (١ / ٧٨).

والنظر إلى عيوب الآخرين دون عيب النفس من علامة مكر الله بعبده نسأل الله العافية.

قال بكر بن عبدالله المزني: "إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مكر به "[٥٦].

الوسيلة الرابعة: مصاحبة الأخيار والاقتداء بالصالحين.

فالصحبة لها أثر كبير في تزكية النفس أو تدنيسها.

والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل كما قال صلى الله عليه وسلم. [٥٧]

وقد حث الله نبيه صلى الله عليه وسلم على صحبة من يدعون الله على الدوام، ونهاه عن تركهم إلى من يريدون الدنيا، فقا تعالى: **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].**

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لولا ثلاث: لولا أن أسافر في سبيل الله أو أعفر جبهتي في التراب ساجدا أو أجالس قوما يلتقطون طيب القول كما يلتقطون طيب التمر لسرني أن أكون لحقت بالله"[٥٨].

وأقرب الناس إلى الإنسان خلطة زوجه؛ ولذلك أمر الشارع بحسن الاختيار فقال: ((فاظفر بذات الدين تربت يداك)) [٥٩] لتكون عوناً له على طاعة الله وزكاة نفسه.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة تعينه على أمر الآخرة)) [٦٠]، وهذا يدل على بطلان من رسموا لأنفسهم طرائق مخالفة لدين الله من تبتل وعزلة وانقطاع، ويظنون أن في ذلك تزكية لنفوسهم.

---

[٥٦] البداية والنهاية – (٩ / ٢٨٤).

[٥٧] مسند أحمد بن حنبل –٨٠١٥ (٢ / ٣٠٣) المستدرك – (٤ / ١٧١) وقال الحاكم حديث أبي الحباب صحيح إن شاء الله تعالى ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح إن شاء الله.

[٥٨] مختصر قيام الليل، للمروزي – (١ / ٤٢).

[٥٩] صحيح البخاري . ٥٠٩٠ (٧ / ٩) صحيح مسلم . باب استحباب نكاح ذات الدين.– ٣٧٠٨ (٤ / ١٧٥).

وأيضا التشبه بأهل الخير والصلاح لا بأهل الكفر والفسق والمجون، وهناك علاقة وثيقة بين الظاهر والباطن، لا بد منها وتعلق قلبي بين المتشبه والمتشبه به ولها أثرها الخطير في النفوس، فالشارع غلظ على سبيل الحذر في علاقة المؤمن بالكافر، فنهى صلى الله عليه وسلم عن التشبّه بهم، وقال صلى الله عليه وسلم: ((من تشبّه بقوم فهو منهم))[٦١]، وقال صلى الله عليه وسلم:((ألا إني بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى نارهما))[٦٢].

الوسيلة الخامسة: الحذر من أمراض القلوب المدنسة لها، مثل:

١- الحسد: وهو مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب لا يسلم منه إلا القليل ولهذا قيل: " ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه"[٦٣]. وهو من الأخلاق الذميمة لأهل الباطل قال الله تعالى: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء:٥٤].**وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا تباغضوا ولا تحاسدوا))[٦٤].

٢- والعجب. وهو من أمراض القلب الفتاكة، وتكمن خطورته في الانصراف عن الثناء على الله والانكسار بين يديه إلى الثناء على النفس، وسببه الجهل المحض مع الغفلة والذهول، فإذا صاحب ذلك إطراء الناس وثناءهم مع ضعف مراقبة الله وقلة الورع والخشية ونسي نفسه وعيوبه فهنا يكمن الخطر والعطب.

٣- والرياء. وهو من أكبر وأخطر محبطات الأعمال، وهو من الأعمال الشركية الخفيّة المهلكة، وهو التفات القلب لغير الله تعالى.

---

[٦٠] مسند الإمام أحمد (٢٢٤٣٧)(٢٢٨٠١)(٥ / ٢٨٢) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (٥٣٥٥) في صحيح الجامع.

[٦١] ورواه أبو داود ٤٠٣١(٤/ ٤٤) وحسنه الألباني.

[٦٢] رواه داود ٢٦٤٥(٣/ ٤٥)، والترمذي ١٦٠٤(٤/ ١٥٥) وصححه الألباني.

[٦٣] أمراض القلب وشفاؤها – (١ / ٢١).

[٦٤] صحيح مسلم. باب النهى عن التحاسد والتباغض والتدابر.٦٦٩٥ (٨ / ٩).

٤- والشهوة الخفية. وهي حبّ اطلاع الناس على العمل الصالح، وحبّ الشهرة، وأن يشار إليه بالبنان.

٥- وحب الرئاسة. وهي داخلة في الشهوة الخفيّة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم أفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه))[٦٥] وذلك لأن الحرص على المال يجعله غير مبالٍ إذا كسب المال من حرام أو فيه شبهة. ويجعله حريصاً على الشرف إذا قصد الشهرة، أو حريصاً على الرئاسة والولايات والجاه، والأشدّ من ذلك أن يطلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية، كالعلم والعمل الصالح والزهد ونحو ذلك، وهذه من أكبر مفسدات القلوب، وخير علاج لهذه الآفات هو التواضع والإخلاص لله تعالى وإخفاء العمل الصالح قدر الإمكان، والبعد عن الحرص وحب الظهور والشهرة.

٦- والأمن من مكر الله. قال تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[**الأعراف:٩٩**]، وهو من الكبائر، ويعني زوال خوف الله تعالى من قلب العبد مما يجعله يُقبل على المعصية غير مكترث بنصوص الوعيد الواردة فيها.

٧- والقنوط من رحمة الله. وهو المقابل للأمن من مكر الله تعالى، وكلاهما من أمراض القلوب، قال تعالى: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**﴾[**الحِجر:٥٦**] وهو اليأس من روح الله ورحمته وفرَجه، وقطع الرجاء والأمل من الله تعالى فيما يخافه ويرجوه، وفي ذلك إساءة ظنٍّ بالله تعالى.

٨- والسخرية وسوء الظن. ولذا نهى الله تعالى عنهما في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ. .**﴾[**الحُجُرات:١١**] ثم قال بعدها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا**

---

[٦٥] مسند أحمد ١٥٧٨٤(٢٥/ ٦٢)، سنن الترمذي٢٣٧٦(٤/ ٥٨٨) وصححه الألباني.

﴿مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحُجُرات:١٢] وذلك لما في هاتين الخصلتين من إفساد القلوب وتنافرها وتدمير الأفراد والمجتمعات.

الوسيلة السادسة: الحذر من فضول المباحات كالمطاعم والمشارب والنوم، وجميع الملهيات المؤدية إلى الغفلة، وقلّة ذكر الله تعالى، وإشغال القلب بالتوافه كالكرة وأنديتها وتشجيعها ونحو ذلك.

معايير لمعرفة سلامة النفس وصحة القلب:

هناك بعض المعايير والعلامات التي يمكن للإنسان أن ينظر إلى قلبه ونفسه من خلالها، ويقيس بها ليظهر له سلامتهما أو عطبهما ومن ذلك:

١- أنه لايزال يضرب على صاحبه حتى يتوب إلى الله.

٢- أنه لا يفتر عن ذكر الله ولا يسأم من عبادته.

٣- أنه إذا فاته شيء من ورده وعبادته وجد لفواته ألما وحسرة، فكيف بمن ليس له ورد، بل كيف من فاته شيء من الفرائض، قال صلى الله عليه وسلم: ((الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله.)) (٦٦).

٤- أن يجد لذة في العبادة وأنسا وراحة.

٥- أن يكون همه في الله ولله وبالله ومع الله.

٦- أن يكون أشحّ بوقته أن يذهب ضائعا أشد من شح البخيل بماله.

٧- أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل والخوف من عدم قبوله أشد من اهتمامه بالعمل.

---

(٦٦) صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي٥٥٢ (١ / ١٤٥) صحيح مسلم . باب التغليظ في تفويت صلاة العصر.١٤٤٨ (٢ / ١١١).

علامات مرض القلب ودناءة النفس:

١- أن لا تؤلمه جراحات القبائح.

٢- أن يجد لذة في المعصية وراحة بعد عملها وينشغل عن الطاعات.

٣- أن يكره الحق ويضيق صدره به.

٤- أن يجد وحشة مع الصالحين.

٥- أن يقدم الأدنى على الأعلى بالتوافه على حساب الواجبات.

٦- قبوله الشبه، وتأثره بها، وحبه الجدل، وعزوفه عن قبول الحق، فيضاهي بذلك من قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخرُف:٥٨].

٧- خوفه من غير الله تعالى.

٨- ألَّا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

هذا ما تيسّر جمعه في هذه العجالة سائلًا المولى عز وجل أن يرزقنا الاستقامة على دينه والثبات على أمره.

اللهمّ آت نفسونا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليّها ومولاها.

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، اللهم إني أسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، اللهم إني أسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، اللهم إني أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك مما تعلم.

اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب وأسألك القصد في الغنى والفقر، اللهم أسألك نعيماً لا ينفذ وأسالك قرة عين لا تنقطع، وأسالك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت، اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

اللهم تقبّل توبتي واغسل حوبتي، وثبّت حجتي، وسدّد لساني، واسلل سخيمة قلبي، اللهم اجعلني لك ذكّاراً، لك شكّاراً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، لك أوّاهاً منيباً.

اللهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.